أنا أفضل مني

إسلام الحامدي

رواية

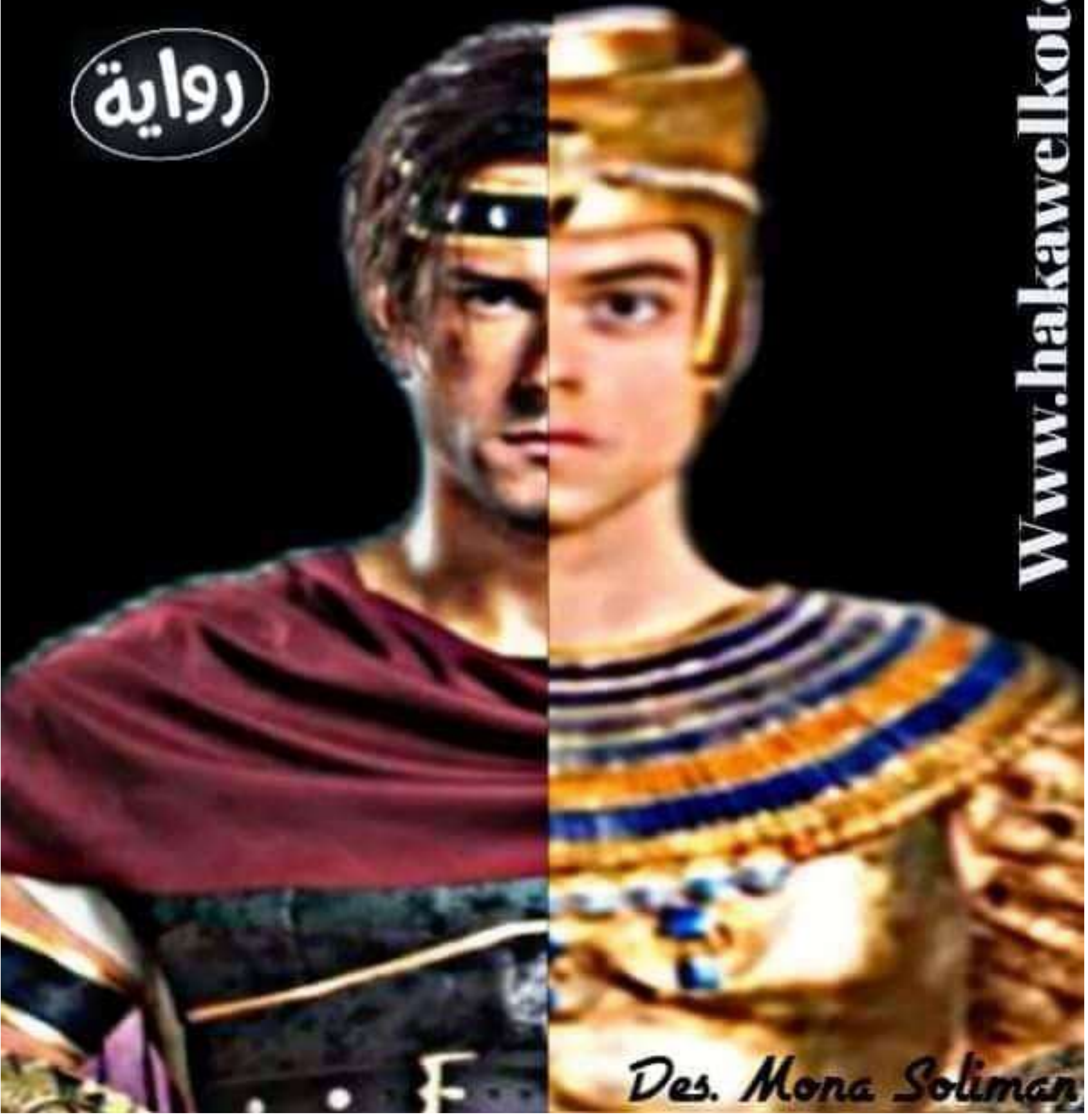

Www.hakawelkotob.com

أنا أفضل مني

إسلام الحامدي

(للكبارفقط) (+21)

إصدار

حكاوي الكتب

www.hakawelkotob.com

رابط الجروب

www.facebook.com/groups/1604415572971777/

التدقيق اللغوي: هند محمود

التصميم: فاطمة الزهرة

المكان: رومانيا، الزمان: القرن الخامس عشر، عام (1541) ميلادية، في العصور والوسطى..

أقفُ الآن أمام جثة الملك المهزوم بزيي العسكري أمام عرشه، وعيناي ممتلئتان بالدموعِ، دموع الفرحِ، ويداي ملطختان بالدماء، يدٌ تحمل خنجرًا ويدٌ تحمل رأسه المقطوع!

لا أعلم كيف، ولا متى! ولكني أعلم علم اليقين أنني الآن ملِك ولي مملكة كبيرة، وأملِك أيضًا المال والبنين، زينة الحياة الدنيا.

أترى؟! هي أشياء لا تُشتَرى حين تُصبِح ملِكًا يخشاه الجميع، الآن سوف أسطُر التاريخ بأحرفٍ من ذهب..

أنا الملِك الأعظم، أنا أُدعى السيد (حنفي الشرقاوي).

دخل علينا أنا وجنودي (لوسيفر) وهو في عجلةٍ من أمرِه، فالتفتُّ إليه وألقيتُ ما بيدي على الأرض وأشرتُ له بالكلام، فقال:

- تهانينا يا فخامة الملك العظيم بالنصر المُبين، أنتَ الآن ملِك الشمال وملِك الجنوب، فالجنوب أصبح تحت إمرَتك الآن بعد حربٍ داميةٍ دامَت لأكثر من ثلاثة أيام؛ وهذا بفضل ذكائك في أساليب الحرب الاستراتيجية والخُدَع الجوهرية.

قالها لي ذلك الشيطان اللعين، إني أخشى في قرارة نفسي ألاعيبه الجهنمية؛ فهو كاذبٌ لعين.

قُلت له مُثبِّتًا نظري في لون عينيه الحمراوين:

- نعم يا وزيري، الفضل كل الفضل يرجع إلى ذكائي وحكمتي.

فنظر إليَّ نظرةً ذات معنى، وابتسم ابتسامة خفيفة، ثم انحنى لي وهو يقول:

- نعم سيدي، ولكني أحمِل أخبارَ غير سارَّة لك...

نظرت له في غضبٍ وهو يرفع رأسه في كبرياء وشموخ وهو يردف:

- وأخشى عليكَ زوال مُلكِك!

***

فلاش باك، القاهرة 2008 ميلادية..

كما هي العادة، أقفُ أمام محل الطعام المشهور عالميًّا بالرمز (M)، فأنا حارس أمن، راتبي قليل، ولكني أحصل على بقشيشٍ إضافي جيد من الزبائن، الزبائن الذين لا يشعرون بحِرماني وشقائي في الدنيا، فأنا من محدودي الدخل والمُهمَّشين في الأرض، شابٌّ صاحب ثلاثين عامًا، خريجٌ في كلية التجارة، ولي زوجة تحبني تدعى (شيماء)، وطفلة صغيرة تدعى (جنة).

ولكني لا أشعر بالجنة، أنا أحيا في الجحيم، غلاء الأسعار وقلة حيلتي.

كالعادة، أذهب في الليل بعد انتهاء الدوام الخاص بي ومواعيد عملي الرسمية، لا أنتظر راتبَ آخر الشهر؛ فربما زبون أو اثنين في اليوم أتحصَّل

منهم على ربع راتبي، وهو خمس مئة جنيه، يكفي حاجتي وأسرتي في شقة صغيرة بالإيجار القديم.

أقف أمام بائع الخضراوات مُشتهيًا بعض الفاكهة، ولكني لا أملِك ثمنها الباهظ، فأقوم بشراء الأساسيات من الخضار وأعود إلى بيتي المتواضع.

***

جلست على الطبلية أنا وزوجتي وابنتي، فهما تنتظران عودتي لتناول العشاء سويًّا.

(حنفي): أخبارك إيه يا شيماء؟ عاملة إيه في الشغل؟

أجابَت وهي وردة ذابلة تُلملِم حروفًا من أحبال صوتها وهي تقول:

- الحمد لله.

(حنفي): صوتِك مش عاجبني! مالِك؟ فيكِ إيه؟

(شيماء): هقولك بس لما أنيم البت.

(جنة): بابي، عاوزة عروسة جديدة.

(حنفي): حاضر يا حبيبتي.

(شيماء): كلي يا جنة عشان تكبري، كلي.

(حنفي): جنة! فكرك هندخل الجنة يا شيماء؟!

(شيماء): وماندخلهاش ليه يا حنفي؟! قتلنا قتيل ولا ظلمنا حد يا راجل؟!

(حنفي): على رأيك، هتبقى نار في الدنيا ونار في الآخرة!

ثم رمقتني بنظرة حادة؛ فهي تعرف مقدار حقدي وكرهي للقدر الذي كتَب علينا الفقر مع مرتبة الشرف.

***

نائم في الفراش مع زوجتي (شيماء) مُحاوِلًا مداعبَتها، وهي ترفض بشدة، ثم تبتعد عني، فجلست على طرف الفراش وهي تبكي، فتحركت بخفة وجلست خلفها وأنا أُقبِّل عنقها.

(حنفي): مالِك بس؟ فيكِ إيه؟ هه؟! أنا عاوزِك دلوقتي!

(شيماء): أنا قرِفت خلاص، كل الناس طمعانة في جسمي!

(حنفي): كل الناس! هو إنتِ متجوزة حد غيري من ورايا ولا إيه يا ولية؟!

(شيماء): صاحب المحل اتحرش بيَّ النهارده تاني!

انتصبَت قدماي على المرتبة المتهالكة ذات القطن الأشبه بالصخور، وأنا أشتاط غضبًا قائلًا:

- تاني؟! يا بنتي ما أنا قلت لك سيبي الشغل ده، ولا إنتِ مش هترتاحي غير لما أصور قتيل وأروح أموت الراجل ابن الـ××× ده؟! يخرب بيته، ده رجل في الدنيا ورجل في الآخرة!

وقفَت أمامي وهي تنظر للأرض، وقالت:

- قلت لَك الشغل ده مش هسيبه، وأنا بعرف أصده ازاي.

(حنفي): بتصديه زي مابتصديني، صح؟! طيب أنا جوزك، فين حقوقي الزوجية بقى؟!

(شيماء): حقوقك الزوجية! اللي هي دقيقة واحدة، صح يا راجل؟!

احمرَّ وجهي خجلًا، فأكثر الرجال يعانون من تلك المشكلة، فقلت لها:

- تقصدي إيه بكلامك الماسخ ده؟! هه؟! مش فاهم!

دفسَت جسدها أسفل اللحاف وغطَّت رأسها وهي تقول:

- عاوزة أنام، ممكن؟! سبني في حالي جسمي مكسر، وبعدين اللي مش قد حرب مايدخلهاش، تصبح على خير.

جلستُ على الفراش وأشعلت سيجارة (كليوباترا) وقلت في غضب:

- ما أنا لو معايا فلوس كنت اتجوزت عليكِ وسبتك لما تيجي بشوقك، آه! بس حظي فقر بقى، نقول إيه، نامي نامي يا ختي، نامت عليكِ حيطة.

***

وجدت نفسي واقفًا وسط رمال الصحراء في وقت الغروب، والرياح والأتربة الكثيرة تحجب رؤيتي وأنا أتقدم للأمام، حتى وجدت كهفًا داخل جبل، فهربت إلى داخله حتى تهدأ العاصفة.

تجوَّلت في الداخل لاستكشاف المكان، رأيت النيران الخافتة تُضيئ الكهف، ووجدت طريقًا مُمهَّدًا لكرسي يشبه كرسي العرش، فجلست على الكرسي، واتكأت برأسي على ظهره، ثم أغمضت عينيَّ وسط هدوءٍ تام.

www.hakawelkotob.com

فتحت عيني من جديد لأجد نفسي أجلس على نفس الكرسي، ولكن في وقت الظهيرة، وعلة تلَّة عالية، ويقف الجميع أمامي مرتدين زيَّ الفراعنة قديمًا، ويتقدمهم شخص وينحني لي وهو يقول:

- مولاي!

ثم رفع رأسه وأتى الحرس برجلٍ مُكبَّل اليدين بسلاسل حديدية، ووجدت (لوسيفر) يضع يده على كتفي وهو يقول:

- أنا وزيرك يا مولاي، لا تخف.

يقف الرجل الذي انحنى لي منذ قليل وهو يرفع يده للجميع ويقول:

- هذا الخائن لا تجوز عليه الرحمة، أطعمَنا وكفَر بنا، زوَّجنا وخان عهدنا، فهو خائن من الدرجة واحِد شَرطة، كان يُرسِل أسرار قُوَّاتنا المقاتلة إلى الهكسوس ويخبرهم عن ثَغَراتنا الدفاعية، واليوم حان وقت القصاص، فما هو قرار فرعون طيبة؟

اتجهت أنظار الجميع ناحيتي، فوقفتُ لا إراديًّا ورفعتُ يدي وأشرتُ بعلامة القتل مثل (حلَبات الرومان قديمًا)، وأنا أقول:

- يُقتَل فورًا على الملأ!

فصاحَ الجميع بكلمة:

- عاش الملك.. عاش الملك..

أحضر الحرس مشنقة خشبية عالية متحركة على عجلات خشبية، وصعد الحرس بالخائن وألبسوه الحبل، وقبل أن يتمَّ إعدامه على الملأ، قال (لوسيفر) بصوتٍ عال:

- باسم الملك، أُمِرنا نحن بقتل أبيدوس بتهمة الخيانة العظمى، الملك.. الأرض.. العامة..

وصاح الجميع في فرحة، وقبل أن يتم شنقُه، نظرَ في عينيَّ وقال:

- اصحى!

فاستيقظتُ داخل الكهف وأنا على الكرسي، ويقف بجانبي (لوسيفر) مرتديًا جلبابًا رماديًّا مُغطَّى الرأس بـ«زعبوط» طويل، ويقوم بإشعال الشموع، في حين كنت أنظُر له في ترَقُّب، لا أعلَم هل أقوم بالركض هاربًا إلى خارج الكهف، أم ماذا أفعل.

ولكن، ولكن أدركتُ للحظةٍ أني أحلم!

سمعتُ صوتًا من بعيدٍ يقول:

- حنفي.. حنفي..

حتى استيقظت، لأجد نفسي في فراشي جانب زوجتي (شيماء)، وهي تقول بغضبٍ وصوتٍ عال:

- بقولك إيه، مش عارفة أنام منك! قوم نام في الصالة، ولا أقولك، هروح أنا أنام مع البت وخليك إنتَ رفص وزعق وإنتَ نايم، براحتك!

وذهبت عني وأنا أتصبَّب عرقًا، وأرتعش وأنا أقول:

- في إيه؟! في إيه؟!

***

في الصباح، وقبل الذهاب إلى العمل، مررت أمام المقهى فأنعشَتني رائحة «المعسِّل»، فدخلتُ المقهى، وهذا نادرًا ما يحدث لتقليل النفقات.

جلستُ وأمامي كوب الشاي وأنا أتصارع مع «الشيشة» في شد الأنفاس، وإذا بي ألمَح (لوسيفر)، الرجل الذي رأيته في الكهف، وبنفس زيِّه قديم الطراز، دخل وتخفَّى خلف ستائر معلقة على الحائط، فذهبت نحوه ووقفتُ أمام الستائر وفتحتها بقوة!

(نادل المقهى): في حاجة يا أستاذ؟! دي المبولة، اتفضل لو مزنوق أو سيبها تفك زنقة غيرك، بلاش الوقفة كده، ده مكان أكل عيش.

فجلستُ في مكاني وأنا أحتسي كوب الشاي، وكنت مُشتَّت الذهن، ترى ما الذي يحدث لي؟! هل جننت أم ماذا؟! ثم قمت بدفع الحساب وخرجت من المقهى دون أن آخذ الباقي، وهذا أيضًا نادرًا ما يحدث!

***

أجلس في العمل، وعلى غير عادتي لا أقوم بفتح وغلق الباب للزبائن كي أحصل على البقشيش، ارتخيتُ على الكرسي ووضعت رأسي على الحائط وذهبت في نومٍ عميق.

وجدت من يناديني بكلمة (مولاي)، لأفتح عيني داخل غرفة كبيرة ذات نقشٍ فرعوني، ونائم على فراشٍ من الذهب الخالص، دائري وكبير جدًا، وتنام بجانبي أربع فتيات خمريات اللون عاريات، ويقف أمامي رجل وخلفه حارس، ويبدو عليهما أنهما عسكريَّين، اعتدلت وقمت من الفراش لأجد نفسي عاريًا تمامًا، فارتديت جلبابًا أبيضَ طويلًا مفتوحَ الصدر كان ملقى على منضدة ذهبية محشوَّة بريش نعام، ووقفت أمام الحارسَين وأنا أُطقطِق عنقي وأفرِد ذراعي في الهواء، وأتثاءب وأقول:

- خير! في إيه؟!

(الحارس): لقد تم القبض على الخائن أبيدوس، وهو ملقى في غياهب الجب الآن يا مولاي.

فقلتُ في دهشة:

- ألم نَعدِمه البارحة؟!

نظر الحارسان إلى بعضهما بعضًا وقال أحدهما:

- كيف؟! لا يا مولاي، لقد قمنا للتو بكشفه والإمساك به وننتظر قرارك، هل تريد أن تراه وتتحدث معه؟

فقلت وأنا أتقدمهما في السير:

- نعم، إني أتطلع إلى ذلك، والآن.

وقمتُ من مقعدي في عملي وأنا أقول:

- أين هو؟

لأجدَ نفسي داخل مكان عملي والجميع ينظر إلي، احمرَّت أذناي خجلًا وابتسمت ابتسامة خفيفة، ثم جلست على الكرسي جانب الباب، كنت جالسًا مُهمَّشًا على الأرض في ركنٍ من أركان العالم، مثلي مثل الكلاب أنتظر العطف من أحدهم.

مرَّ الوقت وأنا أرى الناس تمر من أمامي بسرعة جدًا، والوقت يمر بي ببطءٍ جدًا، وشعرتُ كالمعزول كليًّا عن هذا العالم.

***

في صباح اليوم التالي، أجلس في العمل متحمسًا، فاليوم هو يوم نزول الراتب، قمت بتحصيل راتبي من قسم العاملين خلف المطبخ بعد انتهاء اليوم في الليل، وخرجت من العمل إلى وسط البلد، وأنا أشتهي جميع المحال التجارية، فأنا أملك راتبي وهو 500 جنيه، يكفيني وأسرتي لأسبوعين فقط، لا أعلم ماذا تفعل تلك الحكومة الشمطاء، نحن في أواخر عام 2008 والأسعار في ارتفاع والرواتب ثابتة، تبًا لهم! ألن يُسألوا عما يفعلون بنا أمام الله؟! أين الله من كل ذلك، لمَ يتركهم يقومون بإذلالنا جميعًا بتلك الرواتب الضعيفة؟!

اتجهت إلى سلالم المترو لألحق كالعادة بآخر عربة من مترو التحرير في محطة أنور السادات، قطعت التذاكر التي ثمنها نصف جنيه، واتجهت ناحية الرصيف في اتجاه المرج، ثم ركبت عربة المترو وابتعدت عن عربة السيدات،

ووجدت كرسيًّا فارغًا، فذهبت إليه فوجدت رجلًا كهلًا عجوزًا يقف أمامي، حسنًا، قمتُ له كي يجلس ووقفتُ وأنا أشعُر بشخصٍ يراقبني في آخر العربة، فنظرت هناك ولم أجِد شيئًا!

وأنا في طريقي إلى المنزل، مررت على المقهى ذاته، وقلت تبًا، أنا أملك الراتب الآن ومن حقي أن أجلس قليلًا كي أنعش رئتي بثاني أكسيد الكربون المخزن في دخان «الشيشة»، جلست على أحد الكراسي في عز الشتاء القارس، ولكني مُحصَّن ببلوفر صوف يعتليه جاكت جلد بني، وجدت شخصًا يقترب مني ويبدو عليه أنه من أثرياء القوم، وقال:

- لو سمحت، ممكن أشاركك الترابيزة؟ أصل القهوة زحمة قوي النهارده، والنهارده الخميس، وكل المتجوزين على القهوة!

ثم جلس دون أن آذَن له، تفحصتُ الجريدة التي أخذتها من العمل وأنا أراقبه في صمت، كان يرتدي بدلة سوداء وحذاءً أسود وقميصًا أبيض دون ربطة عنق، وشعره أسود طويل لامع وذقنه خفيفة جدًا، جلس ووضع قدمًا على قدم وهو ينظر لي بعين ثابتة، هو ذلك الرجل الذي إن وقفَ أمام البيت الأبيض تفتح له الأبواب لشدة هيبته، أطال النظر لي ثم قال:

- أنا شوفتَك النهارده في الشغل، كان شكلَك حزين قوي غير كل يوم.

نظرت له في تعجب، وصمت وهو يقول:

- أصل شغلي في المربع ده، وبشوفَك وإنتَ بتفتح الباب للي داخل وللي خارج، شغلانة مش من مقامَك، شغال إيه؟! بواب!

فأجَبتُه في غضب وقلت له:

- أنا حارس أمن حضرتك، وخريج تجارة بس النصيب بقى، وبعدين طالما أنا بواب، قاعد معايا ليه؟!

فقال:

- إنتَ عصبي ليه؟! أنا قلت الحقيقة! وبعدين إنتَ لازم تشكرني، أنا موجود هنا عشانك.

دخل علينا النادل ووضع الشاي و«الشيشة» وذهب، نظرت إلى الرجل فلم أجده إلى جواري، لقد اختفى تمامًا من أمامي! هل كان ذلك خيالًا أم أنني كنت أحلم؟!

***

بينما كنت شارد الذهن وأسرق بعض الأنفاس، وجدت صديقيَّ مُقدمَين نحوي ويجلسان معي ويقولان:

(حسام): يا دين النبي يا جدعان! عاش من شافك يا بني، فينك وفين أيامك؟!

فابتسمت وقلت:

- موجود، موجود يا جدعان، يعني هروح فين بس، الدنيا مشاغل!

(أيمن): عامل إيه؟ وأخبار البنوتة الحلوة إيه؟ والمدام؟

قلت له:

- بخير يا جماعة، في إيه؟! أنا حاسس إني راجع من الخليج!

(حسام): يا بني هو احنا بنشوفك أصلًا، آخر مرة من سنيتن تقريبًا، صح يا أيمن؟

(أيمن): تمام، حتى بالأمارة كان شغال لسه في شركة تأجير السيارات إياها، صح؟

(حسام): وبعدين يا أيمن! بلاش الهزار ده، حنفي بيزعل.

نظرتُ أرضًا ثم نظرت إليهما وقلت:

- لا، لا، عادي، سيبه يا حسام، الفقر مش عيب يا أيمن.

(حسام): طيب نسيبك احنا عشان ورانا مشوار، يلا يا أيمن.

(ايمن): لا! ماورناش مشوار، وهنفضل قاعدين، لو كلامنا مش عاجب، اللي مش عاجبه يقوم هو!

(حنفي): وعلى إيه؟! سلامو عليكو!

انتفضت من مكاني وقام خلفي (حسام) وحاول الإمساك بي وهو يقول:

- يا بني استنى بس رايح فين؟! ما إنتَ عارف هزاره التقيل، خليك إنتَ واحنا اللي هنمشي.

فقلتُ له:

- يا عمي وعلى إيه؟! ما أنا ربنا لو كان خلق أبويا صاحب أملاك، ماكنشي ده بقى حالي، وكان زماني أنا اللي بحفل عليه، قدري كده، هعمل إيه!

(حسام): طيب امشي وماتحسبشي، هحاسب أنا.

فدفعتُ يده عني فأمسكَ بي ثانيةً، وهزَّ لي رأسه في محاولًا إرضائي، ثم ذهبت عنهم وهو يقف ناظرًا لي، وما زال (أيمن) جالسًا وهو يقول بصوتٍ عال:

- ما لسه بدري يا حبيبي! هاهاها.

أمسكت دموعي قبل أن تفضحني وأكملتُ طريقي.

***

دخلتُ على زوجتي وأنا أبكي وفي غضب شديد، وحملتُ طفلتي وأدخلتها غرفتها وأغلقت الباب عليها بالمفتاح وهي تصرخ، ثم وقفتُ أمام زوجتي في الصالة وهي في ذهول، وحملتها وهي تصرخ وتقول:

- في إيه يا حنفي؟! في إيه؟! بتعمل إيه؟!

دخلتُ غرفتنا وألقيتُ بها على الفراش وأغلقت الباب علنًا بالمفتاح، حاولَت الهرب فضربتُها على وجهها فسقطَت أرضًا، فرفعتها وقذفتها على الفراش وخلَعت عني ملابسي وهي تنظر لي وتدمع عيناها وتنزف دمًا من فمها، في حين كنت أنظر لها في تحدي، ثم انقضَضتُ عليها ومزَّقت ملابسها وانهَلتُ عليها ضربًا من هموم الدنيا.

وبينما أنا أغتصبها بعنفٍ شديد، لمحت (لوسيفر) يقف بجانب الفراش مبتسمًا ويضع يده على اللمبة ليُظلِم الغرفة، ارتمَيت من على الفراش أرضًا رُعبًا، فقامت زوجتي بالهرب وهي تقول:

- إنتَ اتجننت خلاص! اتجننت! ورحمة أبويا مش قاعدة لك في البيت.

وصرت أنا في حالةٍ من الصدمة وفقدت النطق والحركة.

***

بعد أن رحلَت عني زوجتي وأخذت معها نور عيني وابنتي الوحيدة، وقفتُ داخل الحمام عاريًا ودخلت أسفل الدش، فتحتُ صنبور الماء ونزلت مياه من القطب الشمالي مباشرةً على أم رأسي! فصرَختُ صرخة لم أصرخ مثلها من قبل.

دخلت الفراش وأنا أرتجف من شدة البرد، ودفستُ نفسي أسفل البطانية مفتوح العين، ظللتُ أنظر إلى أركان الغرفة حتى انقطَعت الكهرباء عني كليًّا في الشقة، وكان هذا ما ينقصني!

أغمضت عينيَّ وفتحتهما مرة أخرى، لأجد نفسي داخل سجنٍ أسفل الأرض ورائحته نتنة، ويجلس أمامي في وضع القرفصاء شخص عارٍ تقريبًا، في حين سمعتُ من خلفي صوتًا يقول:

- مولاي، مولاي!

فنظرت إليه وأنا في حالة ذهول وهو يقول:

- من الأفضل أن تبدأ بأسئلتك يا مولاي، فإن كنت قادرًا على تحمُّل تلك الرائحة النتنة، فنحن لا نستطيع التنفس!

اقتربتُ من الشخص الملقى على الأرض ونظرت إليهم في إشارة بالانصراف، ثم جلست إلى جانب (أبيدوس) وأمسكتُ به، فرفع رأسه وهو يقول:

- مولاي! فليحفظك الإله آمون رع العظيم.

فقلت له:

- لماذا يا أبيدوس؟! لماذا؟! أنتَ تخونُ من أطعمكَ بعد جوع! من آمنَكَ بعد خوف! من قدَّم لك أجمل جواري البلاط الملكي! لقد وثقتُ بك أمام قاداتي وجنودي، وقلت لهم إنكَ فريدٌ من نوعك!

نظر لي في خجل مُتهتِهًا وقال:

- لم أفعل، بل فعلها هو!

ثم دخل (لوسيفر) وقال:

- مولاي الملك الأعظم.

وفتحتُ عينيَّ واستيقظت داخل غرفتي في بيتي المتواضع على ضوء الشمس.

تبًّا! ماذا يحدث لي بحق الجحيم؟!

ارتديتُ ملابسي وخرجت من شقتي، وبعد خروجي كان يقف في الصالة (لوسيفر) ببذلتِه السوداء الأنيقة ناظرًا إلي.

***

أسفل بيتي في شارعنا المحطم الأسفلت الطافح المجاري، وجدتُ تجمعًا كبيرًا من المارة وسيارات الإسعاف وسيارات الشرطة، فاستوقفني منهم رجلان، واللذان كانا يرتديان قميص كاروهات كحلي اللون يعتليه «جاكيت» جلد أسود وبنطلونًا أسود وحذاءً من الجلد.

تبًّا لهم أولئك المخبرين، وكما العادة يكون اسمهم (محمد)!

أمسكَ بي أحدهما وكأنني «خطٌّ» الصعيد، والآخر تيبس بحزامي وهو يضع يده داخل جيوبي وهو يقول:

- محمد، بطاقتك!

ابتسمت وأنا أُخفي رعبي عنهم وقلت:

- يا بيه، أطلعها ازاي وأنا متكتف كده؟!

فأخرجتُ بطاقتي من محفظتي القليلة النقود، ونظر هو فيها وقال:

- إنتَ ساكن هنا؟ من سكان المنطقة يعني؟ ما تنطق يلا، ساكت ليه بروح أمك!

قلتُ له:

- يا بيه، ما إنتَ سألت البطاقة، خليها تجاوبك!

قلتها محاولًا تلطيف الأجواء، ولم أُنهِ كلمتي وإذا بالآخر ينزِل بكفِّ يده أسفل رأسي!

شعرتُ بصداعٍ وصوت صفارة ودوار وسقطتُ أرضًا وأنا أنظر إليهما وهما ينهالان عليَّ بالأسئلة المعتادة، بعد أن أصبحتُ مشوش الرؤية، فأنا الآن لا أسمع ولا أرى.

تركاني ملقى على الأرض فاقدًا للوعي، لأستيقظ وقد احتواني بعض أبناء المنطقة وهم يسقونني كوب ماءٍ مُطعَّم بالسكر، وأحدهم رجل كبير يقول:

- إنتَ مافطرتش ولا إيه يا بني؟! معلش إيدهم تقيلة شوية، أصل في جريمة قتل حصلت والحكومة قالبة المنطقة كلها، قوم يا بني الحق شغلك لو عندك شغل، ربنا يستر طريقك.

استجمعت ما تبقى من كرامتي ونهضتُ وأنا أبكي على حالي، حال المواطن المصري الذي لا حول له ولا قوة، والذي يحيا ويموت مثل الصرصار يُدعَس بالأقدام لأنه لا يملك المال أو السلطة.

تبًّا للقدر الذي كَتَب علينا أن نحيا حياة البهائم!

***

بينما كنت جالسًا في عربة المترو، أتي أحدهم أمامي، رجلٌ من كبار السن، فادَّعَيت تعبي ونومي وتركته يذوق بعضًا من ألوان العذاب، فُتِحت أبواب عربة المترو مثالًا لبدء حرب أهلية، وتدافع الركاب للصعود وللنزول، فاستخدمتُ قوتي وتخطيت الجميع وأنا أركلهم ركلات مثل (محمد علي) المصارع المشهور، فربما أفرغ طاقة غضبي فيهم، نزلتُ وخرجت من المترو ذي الرائحة النتنة والوجوه المكتئبة.

دخلت المطعم واستلمت الوردية وأنا أحاول الحفاظ على كرامتي وأن أحيا بروحٍ جديدة، تقدم نحوي المدير وهو يصطنِع الابتسامة الكاذبة، فوقفتُ رغمًا عني احترامًا لحضرته.

(المدير): في إيه مالك؟! بقالك كام يوم كده مش مظبوط!

نظرت له وأحسستُ بعطفه وطيبة قلبه، فقلت له:

- والله يا فندم مشاكل في البيت، المدام أصلها قاطعاني.

فتبدَّلت ملامح وجهه وهو يقول:

- ششش بس، إيه؟! إنتَ هتحكي لي قصة حياة أهلك ولا إيه؟! خاف على لقمة عيشك وإلا شوفلَك مكان تاني، سامع؟! سامع؟!

نظرت له وأنا أحبس دموعي بعد أن اشتطتُ غضبًا، ثم ذهب من أمامي، ودون أن أشعر رفعتُ الكرسي الذي أجلس عليه وانهلت عليه به ضربًا! فصرخ الجميع، ورفعني عنه عاملي المطبخ وفتيات «الكاشير» ظلت تصرخ، فالجميع يعلم أنني كائن مُسالِم، ولكن قد طفح الكيل، بعدما رفعوني عنه قال:

- والمصحف لأحبسك! إنتَ مجنون! هحبسك يا بن ×××، هحبسك!

***

جلستُ في ركنٍ من أركان الحجز في (قسم شرطة قصر النيل)، ولم يتعرَّض أحدٌ من المحبوسين لي لكوني أُشبِهم، بعد أن تم تحرير محضر لي، حيث سيتم عرضي على النيابة في الصباح، وبعدما قام المدير بعمل كشف طبي لإثبات حالة التعدي بالضرب.

داخل الحجز الفرعوني، وقفتُ أمام (لوسيفر) وأنا أقول له:

- لا بد أن أعرف من أبيدوس الحقيقة الكاملة، فأنا أظن فيه الظنَّ الطيب، إنه لا ولم يفعل هذا.

فقال (لوسيفر) وهو واثق:

- لا، بل فعلَها هو مولاي.

ابتلع (أبيدوس) سدَّ الحنك ولم يجرؤ على الكلام أمام (لوسيفر)، فاقتربتُ منه أرضًا وقلت له:

- أبيدوس! ماذا حدث لك؟! لقد تبدل حالك، لست أنت الذي...

قطعني عن الحديث مع (أبيدوس) معركة داخل الحجز بين أحد المحبوسين، فقد انهالوا على بعض ضربًا حتى اصطدمَ أحدهم بي، ودون أن أشعر قمتُ وأمسكت بالجاني وخبطت رأسه في الحائط، فسقط أرضًا، وأمسكتُ بالآخر ولكمتُه في وجهه، فقام كبيرهم وأمسكَ بيدي ودفعني إلى الحائط، فارتخَت قدماي حتى سقطت أرضًا، وأمرهم بفضِّ النزاع ونظر إليَّ نظرة تحذير، ثم انصرف إلى الركن الآخر من الحجز.

***

نهارًا داخل إحدى الخِيَم في الصحراء، أقف أنا فرعون البلاد وحَولي بعض القادة، ويقف خلفي (لوسيفر)، وكان (أبيدوس) هو ساقي الملك، فقلت له:

- اسقِني خمرًا يُشعِل حماسي يا أبيدوس.

فأتى إليَّ بزجاجة كبيرة تحتوي على الخمر وصبَّ منها في كوبي الذهبي، فابتسمتُ له وابتسمَ لي، شعرت بصَهدٍ حارِق يخرج من خلفي، التفت فرأيتُ (لوسيفر) ينظر إليَّ بغضبٍ وهو يقول:

- أكمِل الخطة يا مولاي!

فقلت:

- حسنًا، حسنًا، الآن سوف نُرسِل إليهم مئتَي جندي من أضعف جنودنا للاستطلاع، ويُخبِرهم قائدهم أننا سوف نهجم من الجنوب عبر البحر ونملك ثلاثة آلاف جنديٍّ وحيواناتٍ عملاقة مُدرَّبة، وسوف نهجم من الشمال بألفِ جندي فقط معتمدين على هجوم الجنوب، وبالطبع هذا لن يحدث، ولكن ترسيخ تلك الفكرة في عقول جنودنا سوف تجعلهم يعترفون بها تحت التعذيب، حيث سينتظرنا أخيبوبوت في الجنوب بكل قواته ليصُد الهجوم الجارف، إنما في الحقيقة، سوف ندخل من الشمال بأقل عدد ممكن من الخسائر، فالحرب خدعه.

وضحك الجميع بصوتٍ عالٍ.

فُتِح باب الحجز وقال العسكري:

- المتهم حنفي الشرقاوي، إفراج.

***

وقفتُ أمام مكتب أمين الشرطة وأنا في قمة الذهول، وقال لي:

- إفراج يا سيدي، حد كبير ضغط على المدير بتاعك وخلاه يتنازل عن المحضر، بس طبعًا هتمضي على عدم التعرض، وهتشوفلك شغلانة جديدة، مش عاوزين نشوفك هنا تاني يا حنفي! مع السلامة.

خرجتُ من قسم الشرطة وأنا أتأمَّل وأنظُر في الطرقات باحثًا عن شخصٍ يخبرني بما يجري، فما أجِد من يَروي عطشي للإجابات.

***

دخلتُ بيتي، أقصد مقبرتي! فالبيت بدون زوجتي وابنتي يبدو لي وكأنه مقبرة، أجريتُ اتصالًا هاتفيًّا عبر الهاتف الأرضي بأم زوجتي، وأجابت وقالت:

- حنفي! البت جيالي منهارة منك ليه كده يا بني؟! حتى البت الصغيرة! وإيه اللي إنتَ عملته ده، تغتصِب مراتك؟! في حد يعمل كده؟!

نزلت كلماتها الجافة على صدري مثل الكرباج الساخن، فأجبتها في حِدَّة وقلت:

- بنتك ناشز!

وأغلقتُ الخط في وجهها دون تردد، وقمت مُتجهًا إلى المطبخ لأفتح الثلاجة، فوجدتها فارغة!

تبًا! كيف كانت زوجتي تقوم بالتدبير المنزلي، أغلقتُ الثلاجة وذهبت إلى الغرفة وقمت بإخراج شريط فيديو كنت أضعه فوق «النيش» الذي لا يجرؤ أحد على الاقتراب منه، واتجهت إلى جهاز الفيديو والتلفزيون، وقمت بتشغيل «فيلم ثقافي» ومارستُ عادتي المفضلة أثناء غياب العلاقة الحميمة، ارتخيتُ على الأريكة بعد الانتهاء وشاشة التلفزيون ما زالت تبث المقاطع الساخنة، ثم غطتُ في نومٍ عميق.

***

أمشي أنا الملك العظيم وسط العامة وخلفي جنودي الأوفياء، ينحني الجميع أمامي أثناء مروري، فأنا أعشق السير في الأسواق متفقدًا عملية المبادلة أو المقايضة، فهي جيدة، تجعل الجميع يزرع ويحصد ويقوم بتربية المواشي

والطيور، كل شخص يمتلك شيئًا يقوم بإبداله بشيءٍ آخر، وبذلك نُصبِح مجتمعًا مُنتِجًا ولا وجود لعاطلين بيننا.

***

أقف أمام معبد (أبيس) العجل، (أبيس) هو إله من أكثر الآلهة تقديسًا عند قدماء المصريين؛ فهو يساعد الفلاح المصري في الزراعة، فاتخذوه إلهًا.

داخل معبد (أبيس)، وفي سط الممر الكبير وعواميد المعبد المبهرة ذات النقوش الفرعونية، أشرتُ للحرس بأن يقفوا على الباب الرئيسي، وأكملتُ طريقي إلى الداخل، لأجد خمسة من الكهنة واقفين ويتوسَّطُهم كبيرهم يسجدون للتمثال الذهبي (أبيس)، التفَتَ لي كبيرهم وأشار إلى البقية بالانصراف، فانصرفوا بعد أن قبَّل الجميع ظهر كفِّ يده، وجلستُ أنا والكاهن الكبير على مسلَّة صغيرة منقوش عليها اسمي.

- (الكاهن): فلتعلم يا مولاي أن الإله أبيس راضٍ عن الأرض، وهو يُسخِّر لنا خصوبة الأرض للزراعة والإنتاج الوفير.

قاطعته قائلًا:

- أنا سمعتُ أنكَ تقرأ الطالع والمستقبل، فهل هذا صحيح؟

- (الكاهن): نعم يا مولاي، فأنا الحارس الأمين، ولقد أنعمَ عليَّ الإله بتلك النعمة.

قلت له:

- حسنًا، ما قولكَ في الفرعون؟

ابتسم الكاهن وهو يتردد في الحديث وقال:

- خير فرعون وخير الإله.

قلت له:

- ماذا ترى في المستقبل؟

(الكاهن): أي مستقبل وأي عام يا مولاي؟ فتاريخ طيبة منذ فجر التاريخ حتى أن يبتعد القمر عنا وحتى أن تبتلع الشمس الأرض في أحشائها المنصهرة.

وقفت وقلت له:

- أنا أعلم أنك لا تخشى أحدًا، ولا تمتلك أبناءً تخشى عليهم بطش الظالمين، أنتَ تقف الآن بين يدي مولاك، وأنا أمرتُك أن تتحدث، فتحدث خيرًا لك.

فأعطاني الكاهن ظهره وذهب ووضّع يده على العجل (أبيس)، واختفت قرنيته وتحولت عيناه إلى اللون الأبيض وهو ينظر لي ويقول:

- المستقبل القريب، سوف تُفتَن في جنودك، وسوف تُقتَل على يد المقربين إليك، ولن يطول ذلك في الحدوث، أما المستقبل البعيد، فسوف يخرج من هنا شاب يُلقَّب بلقب بلدته (السامرية)، يأتي بعد قرنين من الزمان، يتبعه الضالُّون، يسرق من طيبة حضارتها ونور السماء متجهًا إلى الرومان، وينشأ فريق يتبع كفره بعد موته، يسيطرون على الأرض من مشرقها إلى مغربها، ويتخذون الهرم الأكبر رمزًا لهم، ويضعون طيبة تحت تصرفهم، وتعود طيبة لمجدها قبل آخر الزمان، قبل أن تبتلع الشمس الأرض.

نزلَت تلك الكلمات كالصاعقة، ارتخى الكاهن بعد أن تصبَّبَ عرقًا ووقع أرضًا، في حين انصرفت أنا دون أن أتحدث معه بكلمة.

***

وقفتُ في شرفتي أمام إحدى أكبر المسلات الفرعونية التي أُنشِئت في عهدي، لتحتضنني من خلفي (أحوروحب)، زوجتي وحبيبتي وأختي الغالية، فنحن من نسل ملكي، ولا يجوز لأي شخص من العامة أن تختلطَ دماؤه بدماء الملوك، قبَّلتني من الخلف وقالت بصوتها الناعم:

- مولاي دائم التفكير في المُلك الكبير، انتهت الحرب منذ مدة وما زلتَ تُفكِّر يا محبوبي؟!

التفت إليها واحتضنتها وقبلتها وقلت:

- لا يا أحوروحب، أنا دائم التفكير فيكِ، فأنتِ الأرض والسماء والنجوم.

ثم دخل علينا هادم الملذات ومفرق الجماعات المدعو (لوسيفر) وهو ينحني ويقول:

- مولاي أخيبوبوت في انتظارك في البهو الكبير.

أشَرتُ له بالانصراف بعد أن تبدلت ملامح (أحوروحب) وهي تقول في قلقٍ شديد:

- ماذا يريد منك هذا الخبيث؟

فوضعت يدي على كتفها لأُهدِّئ من روعها وابتسمت وانصرفت.

***

استقبلتُه في حفاوة وجلسنا على الأريكة الذهبية الكبيرة وسط الأزهار الجميلة، بعد أن أحضر لنا العبيد الوعاء الذهبي الكبير الذي يحتوي على خيرات أرض طيبة من الفاكهة، وسط هواء الريش الذي يمسكه العبيد من خلفنا، وقال لي (أخيبوبوت):

- أحتاج إليكَ الآن أكثر من أي وقتٍ مضى.

فعقدت حاجبيَّ دليلًا على التعجب؛ فأنا أعلم أنه (مثليُّ الجنس)، فابتسم وهو يقول:

- لا، ليس ما تظن، فأنا أحتاج إلى أمهر الجنود من جيشك الكبير كي أهزِم بها ملكَ الحبشة.

قلت له:

- أنا أملِك صكًّا مختومًا من ملِك الحبشة بضمان استمرار شريان الحياة نهر النيل.

قال لي:

- تنازعت معه على جبل الذهب الصغير الذي يمتلكه، وسوف أحصل عليه بأي شكل وبأي ثمن، فأنا لست مثلك، أنتَ تملك الذهب والأرض والمياه والخيرات و...

فقاطعته وقلت:

- وما حاجتي أنا إلى الحرب معه، فنحن في سلام تام، وهو ملك صالح وصديق لي.

وقف في غضب وقال:

- عليك الاختيار، إما أن تكون معي، أو أن تكون معه!

وقفتُ وقلتُ له بصوتٍ عالٍ جعل جنودي ينتبهون:

- أنا فرعون طيبة! ومن يُهدِّد مُلكي سوف أحذف اسمه من التاريخ، منابع النيل في أمان، فإن شعرت أنا بأي تهديد منكَ أو من أي مِلك آخر، سوف يندم أشد الندم من يتحداني، وأحذرك من أن تقترب من ملك الحبشة!

انصرف عني بعد أن بدَّل الدم الساري في شرياني التاجي، قدِمَ إليَّ أحد جنودي المخلصين وأشار لي بأن يقتله، فرددت نافيًا بعيني، فذهب عنه وذهب عني، وجلست وأخذت تفاحةً وأكلتها في غضب.

***

استيقظتُ داخل بيتي الصغير على صوت إحدى القطط التي تقِف في الخارج، كان صوت صراخ القطة اللعين الذي يُشعِرك بنهاية العالم، رفعت سروالي إلَّي وأغلقتُ التلفاز، ثم اقتربت من باب الشقة ونظرتُ من «العين السحرية»، فوجدت الكثير من القطط السوداء، منظرٌ يبث الرعب في القلوب، ففتحت الباب، لأجد قطة واحدة فقط تقف أمامي وتنظُر في أمِّ عينَي، فتذكرت مقولة جدي: «يا بني ابعد عن القطط والكلاب، وخصوصًا بالليل، ولو صدفِت، ماتحطش عينك في عنيهم».

فأغلقتُ الباب في هدوء وبطء وأنا أنظر في الأرض محاولًا تجنب النظر داخل عين القطة السوداء، ثم التفت لأجد (لوسيفر) يجلس على الأريكة وهو ينظر إلي، فشعرتُ وكأنني شجرة ثابتة في الأرض غير قادرة على الحركة بسبب جذورها التي تمتد إلى سابع أرض!

***

ما زال ينظر (لوسيفر) إليّ وهو على الاريكة، ويُشير لي بالتقدُّم نحوه، وأنا فاقد للنطق والحركة، فقام من مقعده واتخذني قِبلَة له يطوف حولي، ثم تحدث وقال:

- أنا عارف إيه اللي بيدور في بالك، أنا عارف كل حاجة عنك، عارف بتحب إيه وبتكره إيه، عارف كمان نفسك في إيه، نفسك تكون ليك شأن كبير ومعاك سلطة ومال، سهل سهل، بس كل اللي محتاجه منك في المقابل، إنك تكفر بربك وتركع لي، وأكون ليك الإله اللي يحقق كل رغباتك!

نظرت له ولم أدرِ بماذا أُجيب! لماذا أنا تحديدًا؟! ولماذا يريد خدمتي؟! ولماذا أركع له من الأساس؟!

(لوسيفر):

- تقدر تقول عليّا بعمل تجربة باثبت بيها لمديري في العمل إني مش أسوأ واحد وفي زيي كتير، أيوه، أنا اللي كنت في أحلامك، أنا اللي خرجتك من الحبس، وأنا وزيرك في العصر الفرعوني، وأنا برضه وزيرك في المملكة الجديدة اللي هنقلك ليها، بس بعد ما تقبل عرضي وتنفذه، كل اللي محتاجه منك بس، إنك تركع!

نزلت كلماته عليَّ كالجمرات الحارقة، أو كمثلِ البركان المنصهر أعلى الجبل، في حين أقف في انتظار أن أنصهِر داخل البركان.

اختفى عني ذلك الشيطان اللعين، فهي صفقة مربحة له، يريدني أن أبيع روحي للشيطان، سقطتُ أرضًا وأنا فاقد النطق والكلام، نِمتُ على الأرضية وأنا ناظرٌ للسقف.

***

استيقظتُ في صباح اليوم التالي ونزلت من بيتي وذهبت إلى أقرب عربة «فول» وأكلت منها وأنا تكاد أحشائي أن تُمزقني إربًا إربًا من شدة الجوع.

اتجهت إلى «وسط البلد»، ووقفتُ أمام المطعم القديم، لمحني المدير فرفعت يدي بالتحية، فأمر حارس الأمن الجديد بأن يُلقي على بدلو ماءٍ وسِخ، فتفاديتُه وسقطَ الماء على الأرض، ثم نظرت له دون أن أفعل شيئًا ومضَيت في طريقي قُدُمًا.

طفتُ في الأنحاء أتفحَّص المحال التجارية وأدخل كل محل وأسأل عن وظيفة، وفي كل محل أسمع نفس الجملة المعتادة: «لا توجد فرص عمل حاليًا».

جلست على أحد المقاهي البلدي في وسط البلد أمام المحكمة، ورمقتُ عربة «بمبار ولحمة رأس»، أشرتُ إلى نادل المقهى وقلت له:

- هاتلي رغيفين بخمسة.

أجمل شيءٍ بعد أكل «الزفر» أن تهضِم بشاي ساخن، شربت الشاي بعد الأكل وخرجت من المقهى وأنا أنظر إلى ضوء الشمس الحارق وقت العصاري.

لأجد نفسي أحجُب ضوء الشمس بيدي، ثم أسمع كلمة «مولاي»، والتي قالها أحد حراسي وأنا أقف بزيي الملكي وسط حقلٍ كبيرٍ من حقول القمح، فأشرتُ له بالحديث فقال:

- أخيبوبوت، انتصر في معركته وسَيطر على منابع النيل في الحبشة والمدن المجاورة لها.

دخلت قاعة الاجتماعات الكبيرة وكان يقف أكثر من عشرين قائدًا لا أعرف إلا القليل منهم، ثم دخل (لوسيفر) خلفي ووقفنا على رأس الطاولة الذهبية، حيث وقف هو بجانبي، فنظرت له وهو يُخفي ابتسامةً تُحرِقني من الداخل، وقلت للجميع:

- لقد تمت السيطرة على منابع النيل.

تعالت الأصوات بين الحاضرين، فرفعتُ يدي فصمتوا جميعًا، ثم قلت لهم:

- الآن نحن على أبواب الحرب، حرب لا يعلم عواقبها إلا (آمون رع) العظيم، أصبح شريان الحياة مُهددًا الآن وعلينا جميعًا الوصول إلى الجنوب، جنوب طيبة وشمال الحبشة؛ للدفاع عن مستقبل طيبة، فاستعدوا للمعركة.

انصرف الجميع وانصرف (لوسيفر)، ودخلت على (أحوروحب) وهي تبكي، فاحتضنتني وقالت:

- أخشى عليكَ ما أخشاه بأن أفقدكَ للأبد!

فقلت لها:

- لا تخافي ولا تحزني، إني قادمٌ إليكِ بالنصر المبين، فإن تركنا (أخيبوبوت) فهو لن يترُكنا، وسوف يبني سدودًا علينا تمنع طمي الأرض وماءَها عنا، ما أُخِذ بالقوة لا يُستَرَد إلا بالقوة.

***

كنت جالسًا على الأريكة وأنا أشاهد التلفزيون على القناة الثانية، فأنا الآن لا أملكُ مالًا ولا زوجة ولا ابنة، ولم ولن أذهب إلى زوجتي لكي أنال عطفها!

ماذا أفعل؟! فأنا أشعر بالجوع، وتكاد تنفَد مني أموالي، شعرت بالملل فتفقدت المنزل ودخلت غرفة ابنتي، والتي كان يسكُنها جدي، فأنزلتُ حقائبه من فوق الرفوف القديمة وأخرجتُ مُتعلَّقاته؛ لعلَّني أجِد ميراثًا قديمًا أو ما شابه.

أخرجتُ كتابًا لأول مرةٍ أراه في حياتي، لم أكُن أعلم أن هناك أحداثًا ستقلب حياتي رأسًا على عقب!

كتاب كبير يوجد عليه من الخارج رسومٌ ونقوش إسلاميه، ومن الداخل كُتِب بخط اليد: «مُذكِّرات جابري الشرقاوي»، هذا جدي!

فشرعتُ أقرأ المذكرات..

إنه في عام (1969) ميلادية، تدهورت بنا الحال كأشخاصٍ وكمجتمع، يا لها من هزيمة موجِعة لِمصر خاصة وللوطن العربي عامة، هُزِمت الجيوش العربية أمام دويلة إسرائيل حديثة العهد، أصبحت حال الوطن العربي في

الحضيض، سواءً أكان نفسيًّا أو ماديًّا، وقلّت فُرَص العمل وزادت معدلات البطالة، والشعب يريد الكرامة والحرب لا سواها، ولكن وَضْعنا لا يسمح بحدوثِ حرب ثانية؛ فخسارة جديدة ستعني انهيار أُمَّة، علمًا بأن رجال الوطن تم تجنيدهم لمدة سبعة أعوام.

وقبل نكسة عام (1967) بستة أشهر، صدمتني سيارةٌ في واقعة غريبة من نوعها، لم أعلم من أين أتَت تلك السيارة، وحدث لي كسرٌ مضاعَف، وبسبب الحصار الاقتصادي من إنجلترا ومنعِها للدواء، حدث لي نزيفٌ داخلي أدّى إلى تورُّم قدمي، وحدثَت لي غرغرينا مما اضطرهم لبتر قدمي اليسرى، فصرتُ الآن لا أستطيع العمل، ولا أستطيع أن أخدُم نفسي حتى، هجرني الناس جميعًا، فاستخدمتُ الحصا وربطت بها قدمي وذهبت إلى قبر والدي، والذي بالكاد أعرف عنه اسمه فقط!

ووسطَ جلوسي إلى جانب القبر وحديثي عن سوء حالي وقسوة الدنيا، إذا برجُلٍ غريب الأطوار يدخل ويقف عند مقعدي، كان في يده بعضًا من الكتب، وكان يرتدي بدلةً سوداء وشعره ناعم وذقنه خفيفة، فكان يُشبِه ممثلي هوليود، وبعدما جلس إلى جانبي سألني عن حالي، لم أعلم ما الذي دفعني وجعلني أقصُّ عليه قصتي، فأعطاني كُتُبًا وأخبرني أن عليَّ أن أخدع الناس لكسب قوت يومي عن طريق السحر والشعوذة.

وبالفعل، أمضيتُ بضع سنين في هذا المجال، وتزوجتُ وأنجبتُ ولدًا، واستخدمت السحر الأسود لمدةٍ طويلةٍ من الزمن، حتى جاءني ذاك الرجل

بعد مدةٍ طالبًا مني أن أرُدَّ له الدين القديم وأن أُتِمَّ الصفقة، وعندما استفسرتُ عن مقصده، أخبرني أن نسلي ونسل أحفادي سيكونون خُدَّمًا له.

فانقلَبت حياتي رأسًا على عقِب حين رفضت العرض المُبرم، وبدأت الأيام تُدهَن باللون الأسود على قرنيَّتي.

***

أغلقتُ الكتاب وأنا أحاول تخفيف حِدَّة نبضات قلبي، أحقًّا كان جدي يستخدم السحر الأسود؟!

وإذ بغتةً أجد (لوسيفر) يقف أمامي أمام باب الغرفة مُتكئًا على الحائط واضعًا يده في جيبه، وهو يقول لي مع ابتسامة صفراء اللون:

- إنه قدرُكَ، وعليكَ تقبُّله.

أغمضت عينيَّ بقوة، ثم فتحتهما ولم أجِده، بل سمعت صوتًا من الخارج، شيءٌ ما قادمٌ في اتجاهي، يصطدم بأثاث المنزل، في حين كنت أُراقِب ذلك العرض المرعب، وإذا بثعبانٍ كبيرٍ يقفُ أمام الغرفة ويرتفع، ثم يفتح فمه ليخرج منه ثعابين أصغر حجمًا منه، انتشرت تلك الثعابين في الغرفة وانقضَّت عليَّ وقيَّدتني، حتى أعجزَتني تمامًا عن الحركة، ثم أتى ذلك الثعبان الكبير وابتلعني إلى معدته.

***

أحيانًا يُجبِرك القدَر أن تدفع ثمنًا لشيءٍ ليس لك فيه منفعة، أو أن تُخفي شيئًا من الماضي لحفظ ماء الوجه، وأحيانًا أخرى، فإن الفقر وقلة الحيلة

قد يدفعانِك إلى السرقة أو خيانة وطنك أو حتى أن تَقتُل أصعب أنواع القتل، وهو أن تقتُل النفس، أن تقتُل نفسكَ بيديك، فيتحتَّم عليك تبديل الشخص الخبيث بالطيب، وأن تبدأ صفحةً سوداءَ جديدةً في حياتك.

أفتح عينيَّ وأنا بزيي الملكي واقفًا أمام (أخيبوبوت) وهو يتوسَّلُني ألا أقتله، بعد أن قام جنودي بنحرِ رجاله، فضيَّقتُ عليه الخناق وأنا أعتليه بقدمَي وهو نائم على الأرض يترجَّاني أن أتركه، فأنظر إليه وأقول:

- ما الذي دفعَك لهذا؟! صحيح أن صديق الأمس عدو الغد، أنتَ لم تُقدِّر حجم خصمِك جيدًا، وقُلت لك أن مَن يُهدِّد أمن وسلامة أرضنا فسنموت في سبيل الحفاظ على ما نملِك، واليوم كُتِب عليك القتل، وكُتِب عليَّ أن أحيا يومًا جديدًا.. وداعًا يا مَن كُنتَ صديقي يومًا ما!

غرزتُ خنجري في قلبه، في حين كان يُمسِك هو بيدي وعيناه تنظران في عيني، حتى قاطعنا (لوسفير) وهو يقول:

- مولاي، لقد ماتَ الرجل!

ساد الصمت لثوانٍ معدودة، ثم انقضضت على (لوسفير) مُحاوِلًا زرع خنجري في قلبه، ليتوقف بيَ الزمن وبمَن حولي، وأثبُت في الهواء وأنا أشعر بكل شيء، ولكن لم أستطِع الحركة، و(لوسيفر) يتحرك بحرية ويطوف حولي وهو مبتسم ويقول:

- لماذا تفعل بي هذا؟! أنا صديقك، وأنا من يساعدك دومًا، لست أباك الذي خلقَك وقذفك على ذلك الكوكب الحقير تُصارِع الثيران وتشرب من دم أخيك، أنا الناصح الأمين.

ثم اقتربَ من أذنيَّ وهمس لي وقال:

- هذه هي حياتي الحقيقية، أنتَ عِشتَ تلك الحياة من قبل، تذكَّر.

***

استيقظتُ في غرفة جدي لأجد الكتب تعتليني، تلك الكتب الخاصة بالسحر الأسود، فتلفَّت حولي وأنا أحاول مدَّ يدي لألتقط كتابًا لفت نظري، اسمه...

وإذا بي أسمع دقَّ جرس الباب، فذهبتُ وفتحت لأجد جارنا (الحاج سيد نعيم) يقف أمامي على باب الشقة وينظر إلى الداخل، نظرتُ مثله ثم نظرت إليه في تعجُّب وقلت له:

- خير يا حاج سيد! في حاجة؟!

ابتسم لي وهو يقول:

- لا أبدًا، أصل الحاجَّة سِمعت صوت خبط ورقع، واحنا عارفين إنك لوحدك اليومين دول، والجماعة يعني مش هنا، فا... فا... فقولنا نطمن عليك بس!

فقلت له:

- لا أبدًا مفيش، كنت بنقل العفش من مكانه وبروَّق البيت، اطمن، مجبتش نسوان الشقة.

ابتسم لي في بلاهة وقال:

- طيب، بركة إنك بخير، لو عوزت حاجة احنا في الخدمة.

ذهبَ عني وأنا أعلم أنه كان صديقَ والدي منذ أن كنت طفلًا، فناديتُه قبل أن يُغلِق باب شقته وقلت له:

- حاج سيد، ممكن آخد من وقتَك خمس دقايق؟

جلست أنا و(الحاج سيد)، وقال لي:

- شوف يا بني، أنا هقصر عليك المسافات، وهحكيلك اللي إنتَ بتسألني فيه وعايز تعرفه، أنا كنت صاحب أبوك الروح بالروح، ميفرقناش عن بعض إلا الشديد القوي، لحد ما تم تلاتين سنة، حالُه اتبدلت، كنت إنتَ صغير لسه متوعاش على الدنيا، بعد ما كنا بنروح الجامعة سوا، وفي كل صلاة سوا، اتغير واتبدل مرة واحدة، حاولت أجيبه يمين، أجيبه شمال، إنما أبدًا! اتبدلت ملامح وشه والنور انطفا منه يا بني، متآخذنيش يعني، بقى باين عليه غضب ربنا، وبعدها بكام سنة كان خلاص، رجع يشتغل زي أبوه، أصل أبويا من كبار الناس في المنطقة، وكان بيحكيلي عن جدك يعني إنه كان شغال في الأعمال والحاجات دي، وكان جدك وأبوك متخصصين قوي في الخواتم الفضة اللي فيها فص حجر كريم، وكانوا بيسَكِّنوا جوه الحجر ده جن، تلبس الخاتم من هنا، تبقى راجل بقوة سبعين حصان من هنا، وأبويا حكالي برضه

أن جدك اتغير برضه في سن التلاتين، مش عارف يا بني إيه قصة التلاتين دي في عليتكم! صحيح، تميت التلاتين دي ولا لسه؟!

لم أعرف كيفية الهروب من ذلك السؤال، وبدون تردد أجَبت:

- تميتهُم من تلت أربع أيام.

فتبدلت ملامح الرجل وانتفض من مقعده وقال:

- طب يا بني، يا لهوي! ده أنا نسيت القهوة على النار!

واختفى عن بصري في ظرف خمس ثوانٍ!

الآن بدأت الرؤية تتضح بعد أن كنت أعمى في طريق الظلمات وحدي.

***

أقف الآن في صالة منزلي ممسكًا بيدي المصحف وأنظر له وتكاد تتمزق شراييني من قوة تدفق الدم بها، وأنا أُنزِل المصحف أرضًا واعتدل وأرفع قدمَي وتزداد ضربات قلبي.

لا أعلم! شيءٌ ما يدفعني وشيءٌ أخر يمنعني، وأنا أقول حسنًا، حسنًا، حسنًا! حتى أن ضرب جرس الهاتف، انتفضت من أثر الخضة وذهبت إلى الهاتف، ثم رفعت السماعة، وإذا بـ(جنة) ابنتي تتحدث وتقول:

- بابا وحشتني!

ارتخت كل عضلة في جسدي وجفَّ عرقي وتنفست وقُلت:

- حبيبتي! إنتِ كويسة؟ وحشتيني قوي، أنا بحبك قوي، بحبك قوي، خليكِ عندك، أنا هاجي آخدِك حالًا!

أغلقت الهاتف وذهبت إلى حيث كان المصحف ورفعته عن الأرض، ثم قبلته وقُلت:

- أستغفر الله العظيم، سامحني يا رب!

وخرجتُ من باب شقتي وأغلقته خلفي.

***

أعلى الكوبري الدائري بعد أذان الفجر، ومع بداية ضوء الشمس، إذا بشابورة كبيرة تجتاحُ الطريق، وإذ فجأةً يصطدم الميكروباص وينقلب على جانبه، وتصطدم بنا أكثر من سيارة، وأسمع دوِيَّ انفجارات السيارات وصراخ الكثيرين.

تبًّا! لا أقدِر على الحركة، هل هذه النهاية؟! حسنًا، أنا أقبَلُها، فلقد ملَلت الحياة.

انطفأت عينايَ وتلاشى الصوت تدريجيًّا عني، حتى غِبت عن الوعي بسبب دخان السيارات المحروقة وقلة الأكسجين.

وحين فتحت عينيَّ من جديد، وجدت نفسي وأنا بزيي الفرعوني، أجلس في شرفتي الملكية أمام المسلة الفرعونية الكبيرة، ويدخل عليَّ ابني الأكبر(خابخاي)، فيقِف بجانبي ويقول:

- سقطَت الشمس على زرعنا بضوئها يا أبي فحلت البركة فيه، وأنا ابنك الأكبر ووريثك الشرعي الوحيد، ولذلك فقد أعددتُ لكَ مفاجأة.

وقفت العربات الحربية أمام هرمٍ صغيرٍ ونزل (خابخاي) من على جواده ووقف أمام بوابة الهرم، وأشار إليَّ بالتقدُّم، فنظرت له وابتسمت ثم نزلت من على العربة الحربية وأمرتُ جنودي بعدم تتبعي.

دخلت إلى أسفل الهرم الصغير عبر السلالم، إنها مقبرة فرعونية كبيرة، إنها كبيرة جدًا، ويوجد بها الكثير من التماثيل الصغيرة الذهبية، ومُضاءةٌ بالشموع، فنظرت له وأنا أبتسم وقلت:

- ما هذا بحق الإله (رع)؟! ما هذا الجمال؟!

انحنى لي وقال:

- هذه مقبرتُكَ أبي، وقد حان وقت دفنِك!

ليسبِق خنجره كلامه بحلقي.

أخرِج مني ما تبقى من دماء، فأنا فداكَ بُنيَّ إذا أردتَ الحُكم.

***

فتحتُ عينيَّ داخل أحد المستشفيات لأجد الممرضة تقف بجانبي ويقوم الطبيب بتوجيه بعض الأوامر لها، ثم قال لي:

- الحمد لله على السلامة يا بطل، احمد ربنا، في ناس كتير غيرك ماتت في الحادثة، إنتَ سليم، مفيش غير شوية كدمات وهكتبلك على خروج فورًا.

ابتسم لي وابتسمت لي الممرضة وذهبا عني، وذهبت دمعة من عيني على ما حدث، هل حقًّا عِشتُ يومًا ما ملِكًا؟! هل حقًّا كُنتُ ملِكًا؟! هل حقًّا قتلَني ولدي؟!

***

فتحت عيني داخل المستشفى وأنا مُخدَّرٌ كليًّا من أثر الصدمات وأثر المهدئات والمضادات الحيوية، أشعُر بعدم استطاعتي الحركة، وإذا بـ(لوسيفر) يقترب مني، فأحاول أن أصرخ أو أن أشير إليه فلا أستطيع، اقترب أكثر وأكثر مني ثم اقتربَت شفتاه بجانب أذني، وقال لي:

- مش مكتوب لك تموت النهارده، دايمًا بحاول أنقذك في مقابل إني أشوف الحب في عنيك، أنا أكتر واحد في الكون عاوز مصلحتك، شوفت هُنت على ابنك ازاي؟! قتلَك في ثانية بدم بارد!

- الكلام ده حصل فعلًا ولا أنا كنت بحلم؟! حلم ولا حقيقية؟!

ثم اقترب ثانيةً وقال:

- لو عاوز ملكك يرجعلك ممكن أحققهولك وأرجعك ملك تاني، بس تعمل اللي طلبته منك.

وقفت إلى جانبي الآخر الممرضة وقالت:

- الحمد لله على السلامة، مفعول المهدئ هينتهي كمان ربع ساعة، وتقدر حضرتك تتفضل بعدها.

أين ذهبتَ يا غراب؟! فأنتَ شؤم كبير على بني الإنسان، أي مُلكٍ هذا الذي تتحدث عنه؟! هل حقًّا كُنتُ يومًا فرعونًا؟! تبًّا لكَ ولمن يتبعك من المُغيَّبين!

***

طرقتُ باب شقة حماتي الشمطاء، ففتحَت لي وقابلتني بالحب والترحاب، أقصِد ابنتي، فحضنتني وقبلتني وأشارت إليَّ حماتي بالدخول، فشعرت أني أدخل الدرك الأسفل من النار! كم أكره تلك الأنثى البدينة السمراء! تبًّا لفخذيك! كم أتمنى أن تُحرَقي في الجحيم!

بعد أن أخبرتُها عن فقداني للعمل، قالت لابنتي:

- خشي اللعبي جوه مع ماما يا جنة.

فقبلتني ابنتي ودخلت، ثم قالت لي الشمطاء:

- وبعدهالك يا حنفي! شغل ومفيش، هتصرِف على بيتك منين؟! يا بني قعدة الراجل في البيت وحشة، ومتقوليش كلامِك تقيل على قلبي، إنتَ أبو حفدتي وجوز بنتي ومصلحتك تهمني، ساكت ليه؟ ما تتكلم! طب دورت على شغل؟ اشتغل أي حاجة بدل قعدتك دي، ما تتكلم يا بني! إنتَ واكل سد الحنك؟!

فوقفتُ وأنا أحاول تمالك أعصابي، وقلت:

- جنة، جنة!

أتت ابنتي، فجثوتُ على ركبتي واحتضنتها وقبلتها وقلت لها:

- جنة حبيبة بابا، بابا هيسافر كام يوم عشان الشغل، مش عاوزك تزعلي ماما، اسمعي كلامها، زعلي تيته براحتك، ماشي حبيبتي؟ يلا حضن كبير لبابا.. الله!

انصرفت عني ابنتي، مسحتُ دمعاتي ونهضت من على الأرض ووقفت أمام الشمطاء وقلت:

- أنا جاي أقولك خلي بالك عليهم عشان مسافر، وربنا يكرم في شغل جديد، وهبقى أتكلم في التليفون أطمن عليهم.

فنظرت لي وهي تتمنى أن تضربني بالرصاص، وحينها خرجت زوجتي، نظرت إليَّ ونظرتُ لها، ثم انصرفتُ في صمت.

***

داخل أحد المساجد وبعد صلاة العشاء، جلستُ أستغفر الله لعله يفُك كربي ويرزقني بعمل يكفيني أنا وأسرتي، ثم ذهبت وجلست مع الشيخ وقلت له:

- يا شيخنا، دلوقتي أنا خالي شغل، وعندي زوجة وطفلة، وكل ما أروح لباب شغل يتقفل في وشي! إيه العمل؟

فرفع رأسه وقال لي:

- يا بني الشغل ده رزق، يمكن يكون مش مكتوب ليك، اسعى تاني وتالت ورابع لحد ما ربك يأذن، «ولا تقنطوا من رحمة الله»، إنه بصيرٌ بالعباد يا ولدي.

فذهبت عنه وأنا غير مقتنع؛ فأنا لا ينقصني الصبر، بل ينقصني عملٌ لسد متطلبات بيتي.

***

وقفت داخل الحمام أمام المرآة وأنا أنظر إلى ذقني التي نبتَت، ولم يتبقَّ معي غير موس حلاقةٍ واحدٍ فقط بعد أن انهار اقتصادي، أمسكتُ بالموس ووضعته على شرياني كي أُنهي مأساتي بجرة موس.

تبًّا لتلك الحياة! شقاء كبير وتعب أكثر، ليس كل مجتهد ناجح وغني، فإنها دنيا الحظوظ، وأنا حظي سيئ!

وداعًا ابنتي، وداعًا حنفي، قطعتُ شريان يدي لينخفض ضغط الدم وأشعر بدوارٍ وأنا أنظُر إلى الدنيا باللون الأحمر، ارتخيتُ على الحائط وأنا أنتظِر نزول آخر قطرة دمٍ مني، لأُنهي حياتي المأساوية.

***

داخل مقبرتي الفرعونية، وجدت (أبيدوس) يقوم بتحنيطي، ولكن وجهه تحول إلى وجهي!

فقلتُ له:

- ماذا تفعل يا أبيدوس؟!

فقال:

- أنا أنت، وقت الخير ووقت الشر!

وقام بلف الشاش حولي ووضعي في التابوت الفرعوني، ثم أغلق الغطاء.

***

استيقظت داخل المشفى مرة أخرى، وإذا بزوجتي تجلس إلى جانبي وابنتي، وحين نزلت قرنيَّتي، صاحت ابنتي وقالت:

- ماما، ماما، بابا صحي!

حضنتني ابنتي وأمسكَت زوجتي بيدي وقالت:

- دي عملة تعملها؟! هتموت كافر!

بعد أن أنعشَت المحاليل جسمي الجاف، وبعد أن قاموا بنقل كيس دم من فصيلة (A+) وتكلَّف مبلغ ثلاث مئة جنيه، قلت لها: إيه اللي رجعِك البيت؟

فأجابتني:

- ما إنتَ عارف، مش برتاح مع ماما، بخيله جدًا! وبعدين إنتَ قلت إنك مسافر في شغل، والبيت فاضي، فقُلت أرجَع بقي، ملهاش لازمة قعدتي عند ماما.

***

جلست في المنزل أنا وزوجتي وابنتي نشاهد القناة الثالثة ذات شعار الثلاثة أهرامات، نتابع بعضًا من البرامج التلفزيونية المملة تضييعًا للوقت؛ فزوجتي تعمل وتعول المنزل، في حين أني عاطل.

قالت لي:

- كلمتلك صاحبتي وجابتلك شغلانة على تاكسي، روح بس طلع رخصة واستلم الشغلانة، متبصليش كده! دول فلوس أهي، تمن بيع الغويشة اللي جبتهالي يوم جوازنا، طلع الرخصة وهات اللي نفسك فيه.

قُمت لأحتضنها وأقبلها، واحتضنتنا (جنة) ذات الابتسامة السارقة للقلوب.

ما أجمل أن تملِكَ أسرةً صغيرةً تُحبُّك ولا تحمل لك الضغائن!

بعد أن نامت (جنة)، خرجت زوجتي من الحمام وأمضينا ليلة رومانسية رائعة.

***

ظل (لوسيفر) منقطعًا عني لمدة، وصِرتُ أعمل سائق أجرةٍ الآن، وأصحبت الحياة أفضل.

بعد انتهاء الوردية وتسليم سيارة الأجرة، ذهبت إلى المقهى وجلست، فأنا لا أُدخِّن السجائر، ولكني أعشق «الشيشة»، وخاصةً «شيشة معسل سلوم»، أنهَيتُ ستة أحجار كريم، وتركت البقشيش لنادل المقهى بعد أن دفعت الحساب، ثم ذهبت إلى المنزل.

وفي طريقي إلى المنزل، وجدتُ امرأةً عجوز تجلس على الرصيف وتسأل «الحسنة»، يا لها من امرأةٍ مسكينة، ذهبت إليها وأعطيتها جوزين من الجنيهات، ثم ولَّيتُها ظهري وانصرفت، فقالت:

- وانتَ فاكر كده إنك بعدت عنه؟! هو مستنيك عند مقبرة أبوك، بُكره بعد المغربية.

التفتُ نحوها فلم أجد أي شخصٍ جالس! فصمتُّ وصُدِمتُ لبرهة، ثم عدت إلى بيتي وأنا لا أتحدث، ونمت على الفور.

***

في الصباح التالي، وأثناء تجولي بسيارة الأجرة، لم تفارق ذهني تلك الكلمات الحادة التي سكنَت باطن عقلي وظلت تتردد باستمرار، ماذا أفعل؟! هل أذهب إليه؟! قطعًا لا! فأنا أحيا حياةً أجملَ الآن، لا ولن أفعل.

ثم في المساء بعد أذان العشاء، اتجهتُ من محطة «العباسية» إلى محطة «السيدة عائشة» قاصدًا المقابر هناك، ركنتُ السيارة في الخارج ودخلت إلى المقبرة، فأنا أحتفظ بنسخة من المفتاح.

وقفت أمام قبر والدي وجدي رافعًا يديَّ لهما بقراءة الفاتحة وطالبًا لهما المغفرة، حتى سمعتُ صوت هَمسٍ خفيض خلف القبور، فذهبتُ نحوه في خفة لأرى ماذا هناك، فوجدت أربعة فتيان وفتاة يتبادلون «الحشيش» بينهم، ويتبادلون الفتاة في رضا منها، وحين رأوني فرُّوا هاربين جميعًا وهربت الفتاة معهم، تبًّا لهم!

التفتُ لأجد (لوسيفر) أمام عجز لساني عن ذكر الله!

نظر لي وقال:

- الاتفاق بالدم، وعهد عليك لازم توفيه، اركع لي!

التفتُ إلى الخلف لأهرب منه فوجدته أمامي، تفاديته وهربت وركضت بأسرع ما يمكن، ثم نظرت خلفي فلم أجد أي شخصٍ يتبعني!

إلى أين ذهب؟! إلى أين؟!

دخلت إلى السيارة وحاولت إدارة موتورها فلم تستجِب، في حين كنت أسمع صوت البرق وأرى الرعد!

نزلت من السيارة رافعًا «الكبُّوت»، فانهالَت أمطار السماء عليّ! حسنًا، من الجيد أن الكشافات الأمامية ما زالت تعمل، ولكن السيارة لا تعمل، ثم وجدت من يقول لي:

- محتاج مساعدة؟

التفت لأجد (لوسيفر) أمامي وهو يمسك بيديَّ ويُجبِرني على الركوع، وتكاد يداي تتكسَّران من قوة قبضته، وهو يقول لي:

- إنتَ بتعمل إيه؟! لازم تتم العهد، وإلا هتفقِد كل شخص غالي عندك، الدم بالدم، ونسلَك ونسل أحفادك ملكي، قطعت شرايينك ومُت كافر، وأنا بقولك آمن بيَّا واكفر بيه وأنا هعيشك في جنة الخلد، هتكون ملِك الملوك، سلطة ومال ونساء، إنتَ غبي؟!

لم أعلم إن كانت دموعي أم ماء المطر الذي ينزل على وجهي، فقلت له:

- آمنتُ بك، آمنتُ بك وكفرتُ بالله!

ثم ابتسم وتركَ يديَّ فتوقفت.

***

المكان: رومانيا، الزمان: القرن الخامس عشر، عام (1541) ميلادية، في العصور والوسطى..

أقفُ الآن أمام جثة الملك المهزوم بزيي العسكري أمام عرشه، وعيناي ممتلئتان بالدموع، دموع الفرح، ويداي ملطختان بالدماء، يدٌ تحمل خنجرًا ويدٌ تحمل رأسه المقطوع!

لا أعلم كيف، ولا متى! ولكني أعلم علم اليقين أنني الآن ملِك ولي مملكة كبيرة، وأملِك أيضًا المال والبنين، زينة الحياة الدنيا.

أترى؟! هي أشياء لا تُشتَرى حين تُصبِح ملِكًا يخشاه الجميع، الآن سوف أسطُر التاريخ بأحرفٍ من ذهب..

أنا الملِك الأعظم، أنا أُدعى السيد (حنفي الشرقاوي).

دخل علينا أنا وجنودي (لوسيفر) وهو في عجلةٍ من أمرِه، فالتفتُّ إليه وألقيتُ ما بيدي على الأرض وأشرتُ له بالكلام، فقال:

- تهانينا يا فخامة الملك العظيم بالنصر المُبين، أنتَ الآن ملِك الشمال وملِك الجنوب، فالجنوب أصبح تحت إمرَتك الآن بعد حربٍ داميةٍ دامَت لأكثر من ثلاثة أيام؛ وهذا بفضل ذكائك في أساليب الحرب الاستراتيجية والخُدَع الجوهرية.

قالها لي ذلك الشيطان اللعين، إني أخشى في قرارة نفسي ألاعيبه الجهنمية؛ فهو كاذبٌ لعين.

قُلت له مُثبِتًا نظري في لون عينيه الحمراوين:

- نعم يا وزيري، الفضل كل الفضل يرجع إلى ذكائي وحكمتي.

فنظر إليَّ نظرةً ذات معنى، وابتسم ابتسامة خفيفة، ثم انحنى لي وهو يقول:

- نعم سيدي، ولكني أحمِل أخبارَ غير سارَّة لك...

نظرت له في غضبٍ وهو يرفع رأسه في كبرياء وشموخ وهو يردف:

- وأخشى عليكَ زوال مُلكِك!

***

بينما كنت جالسًا على كرسي العرش للملِك المهزوم وأنا أحتسي الخمر والنساء على الأرض أمامي عرايا ويبكون، أشَرتُ إلى الجنود بإدخالِهم وسطَ عبيدي، ثم أشرتُ إلى الجميع للخروج من المكان وبقيت أنا (ولوسيفر) وحدنا.

اقتربتُ منه حتى وقفت أمامه، وقلت له:

- من ذا الذي يجرؤ على الاقتراب من عرشي وأنا وسط بروجي المشيدة وقلاعي المنيعة؟!

فقال لي (لوسيفر):

- إنهما جهتان، الأولى، الجيش العثماني، والذي بدأ الهجوم على جزر هركليز، أما الثاني، رواما، والتي تطمع في مخزون الذهب الذي نمتلكه، وتسعى لضم مُلكِك إلى مملكتها؛ لتقوى أمام الجيش العثماني.

فاتجهت بقوَّاتي ناحية قصري الذي يُعتبَر المنفذ الوحيد إلى البحر، وداخل قاعة الاجتماعات، وقفت وسط جنودي وقلت:

- كلي آذانٌ صاغيةٌ لكم، ماذا ترَون؟

قال (إكليز) وهو من أقرب القادة إلى قلبي:

- لدينا احتمال أن نتحد مع روما وننضم إليهم لصد الهجوم الجارف للجيش العثماني الكبير، وبعدها نتفرغ لحرب روما.

قاطعه (زراسيس) قائلًا:

- وكيف لنا أن نتصدَّى لأي من الجيشين؟! فكلٌّ منهما وحش كبير ونحن أمامه كهِرَّة صغيرة!

قال (إكليز):

- عزيزي، من الأفضل لكَ الذهاب إلى النمسا والاختباء هناك إن كنتَ عاجزًا عن حملِ السلاح.

فضحك الجميع، ليُقاطعهما الكاهن المخضرم (الباتشي) قائلًا:

- وما حاجتنا نحن إلى الحرب؟! يمكننا أن نُرسِل إلى كلٍّ منهما خطابًا نخبرهما فيه أننا معهما ضد الطرف الآخر، ثم ندعهُم يتنازعون فيما بينهما حتى يهلكَ كلاهما، وربما بعدها نحتلهُما نحن.

ساد الصمت في المكان، ونظر الجميع إليَّ منتظرين قراري، فنظرتُ إلى (لوسفير) وأنا أكاد أغرزِ فيه جميع سيوف جنودي، وهو ما زال مبتسمًا تلك الابتسامة التي تُثير غضبي.

أغمضتُ عينيَّ لثوانٍ معدودة ثم فتحتهما وقُلت:

- لقد أوشكَ الشتاء على الانتهاء، الشتاء يصُد عنا الهجوم البحري للطرفين، ويبقي المنفذ البري هو المكان الوحيد الذي يمكنهما المررو منه.. إكليز! مطلوبٌ منكَ حفر حفرةٍ كبيرةٍ على الحدود بجانب الأشجار العالية، ووضع سكَنات الجنود رماة الأسهم أعلى الأشجار.. زراسيس! مطلوبٌ منكَ إرسال الفرق البحرية لتمشيط السواحل، بشرط أن يكون مظهرُهم رجال صيد وباطنهم جواسيس.. الباتشي! تستطيع التحرك إلى قلب روما واطلب منهم سلاحًا ومعداتٍ حربية، وأخبرهم أننا سنوفر الجنود الخاصين بنا للتصدي للهجوم العثماني، ولا تُخبِرهم بعلمِنا بنية الهجوم علينا من قِبَلهم.. أما أنا، فسوف أذهبُ إلى الحاكم العثماني الآن للتفاوض معه.

ثم أشرتُ إليهم بالانصراف وسط غوغاءٍ من الحديث بينهم، وعندئذ، اقترب (لوسيفر) مني وهو ينظر إليَّ وقال:

- إني معكَ في طريقكَ إلى الحاكم العثماني.

***

أقف أمام قصري الكبير وأسفل الشجرة، ينتظرني جيشي الكبير و(لوسيفر)، وبجواري تقف (فرانسيس) زوجتي وهي تقول لي:

- أخشى عليكَ من بطش المسلمين.

فابتسمت لها وسألت:

- هل قُمتِ يومًا بزيارة مِصر الفرعونية؟

فأجابت:

- لا.

فقبَّلتُها وأخبرتُها:

- يومًا ما وبعد انتهاء الحرب، سوف أذهب بكِ إلى أرض الكنانة مصر، فإنها ساحرةٌ وسوف تُعجِبك كثيرًا.

ابتعدت عنها وهي تقول:

- ولكن، أنتَ لم تذهب يومًا إلى هناك!

فنظرتُ لها بابتسامة وركبت عربتي ومعي (لوسيفر)، عربة فخمة يجرُّها أربعة من خير الخيول.

***

أجلس داخل العربة وما زالت الابتسامة لا تُفارِق وجه (ولسيفر)، وقلت له:

- هل أنتَ سعيد؟!

فقال:

- نعم مولاي، فشرف خدمتِك شيءٌ يُسعِدني.

فقلت له:

- أنتَ وعدتني بالسعادة وليس بالحروب!

نظر إلى الخارج ثم نظر لي وقال:

- السعادة تأتي من القوة، وأنتَ الآن تأمُر قادةً كَتبَ التاريخ عنهم الأساطير، تقتُل ملوكًا وتأخذ مُلكَهم لكَ جَوارٍ بعدد خصلات شعرك، تملك المال والبنين.. ماذا تريد أكثر من هذا؟! أم أنكَ تحلم بالسفر إلى كوكب المريخ؟! لا أنصحك بتلك الفكرة؛ فلا يوجد هواءٌ هناك!

وسط سير القطيع وإذا بالأشجار العالية تحمل جنودًا، فقاموا بإطلاق سهامِهم علينا، فأصابوا بعضًا من جنودي وتوقفت العجلة الحربية الفخمة المحصنة التي أركبها، وجاء أحد جنودي وقال لي:

- نحن نتعرض للهجوم الآن!

فنظرت إلى (لوسيفر):

- كم أشتهي يومًا ما أن أشربَ من دمِك!

نزلت من العربة وقلت بصوتٍ عالٍ:

- أنا مِلك رومانيا، أنا مِلك الشمال والجنوب، مَن أنتم؟

توقفَت أصوات إطلاق الأسهم، ونزَل من أعلى الشجرة قاتل، فوقف أمامي ورفع خوذته، وإذا به يُشبِه (أبيدوس)، وقال:

- أنتَ اخترت الحرب، اخترت أبواب الجحيم!

فنظرتُ إلى (لوسيفر) ولم أجِده كالعادة حينما أحتاجه، فاقتربت من (أبيدوس) قائلًا:

- أنا لم أملِك يومًا حق الاختيار، ولكني مُجبَر بسبب صفقة لم ولن أقبَل بها، وكُتِب عليَّ وعلى نسلي وجوب إبرامِها!

نظر لي وقال:

- بعد تلك الغابة سوف تجد معسكرات الروس، أتمنى لكَ أنت تنجو بسلامٍ وتصل إلى الأناضول (القسطنطينية).

ثم انصرفَ عني هو وجنوده ورحل، فركبت العربة الحربية وانطلقت.

***

كم تمنيتُ الموت؛ فالموت راحة والبقاء للأقوى والأذكى!

دخلنا معسكر (الروس)، وجلستُ في خيمة (القائد)، وقال لي:

- ما الذي أتى بكَ إلى هذه المنطقة المشتعلة من العالم يا مِلك رومانيا؟

فأجبته وأنا أحتسي كأسًا من الخمر معه:

- لا بد أن أصل إلى القسطنطينية للوصول إلى هدنة؛ فالحرب مشتعلة في روما.

فقال لي وهو مشمئز:

- كم أكرهُكم يا معشر الرومان!

فابتسمت له وقلت:

- أنا عاشق للحضارة الفرعونية، وبعد انتهاء الحرب سوف أذهب إلى أرض طيبة؛ فهي أرض المباني والمسلات العملاقة، ولديهم المهندسين والبنائين الجيدين.

قاطعني قائلًا:

- لقد انتهَت الحضارة الفرعونية بعد موت الملكة كيلوبترا عام ثلاثين قبل الميلاد، عن عمر تسعة وثلاثين عامًا، قتلوها أثناء حمَّامها في البحر، وأغروا خادمتها بالذهب ثم قتلوها، وبعدها قام الرومان بقيادة ريتشارد –أحد قادة اليهود الذين خرجوا من مِصر منذ قدم الأزل– بقتل جميع البنَّائين والمهندسين المعماريين، ومن بعدها انهارت المباني والمسلات والمعابد، وأصبحت مِصر القبطية تحت الحكم الروماني بعد أن تم دفن المبدعين، والذين تم نفيهم لمدة ستة أشهر ثم محوُهم من التاريخ.. هل عرفتَ لماذا أكره الرومان؟!

وقفتُ وأنا في ذهول وقلت:

- علينا التحرُّك الآن؛ فالوقت ليس في صالحنا هذه المرة!

وقف أمامي وصافحني وقال:

- أنتَ مختلف عن الرومان، ولكن خُذ حذرك من العرب المسلمين؛ فهُم همج، وبعد الدين الجديد أصبحوا أكثر سفكًا للدماء من أجل التوسع!

خرجتُ من الخيمة لأجد (لوسيفر) يُحدِّث الجواد، فقُلت:

- ماذا تفعل؟!

فانحنى لي وقال:

- في انتظارك مولاي.

فقلت له:

- مُر الجميع بالتحرُّك الآن قبل خروج أول ضوءٍ للشمس.

وبعدها ركبت عربتي الحربية.

كانت الحضارة الفرعونية من أعرق وأكبر الحضارات، وانقطعت أخبارها لسببٍ غير معلوم، واختفت المباني العملاقة والمعابد والمسلات، ربما يكون هذا التفسير المنطقي الوحيد.

***

دخل المخضرَم (الباتشي) إلى ديكتاتور روما، وقال له:

- أخشى عليك من تحالف العرب مع مِلك رومانيا، فهو ذاهب الآن لعقد صفقة معهم عليك، فعليكَ بالتحرك الآن إلى رومانيا، وعليك بمكافأتي وإعطائي رومانيا لأُصبِح مِلكًا عليها تابعًا لروما ولحُكمِك العادل، فقد خانني ذلك الشيطان اللعين وتحالف ضدي مع أعدائي.

تحرك الجيش الروماني تجاه رومانيا بعد أن أصبح مِلك المجَر عاجزًا عن حماية مُلكِه وعن إمداداته لي، فهو الآن كهل عجوز ويتمنى أولاده موته اليوم قبل البارحة؛ ليتنازعوا فيما بينهم على الحكم.

***

قام جنودي المخلصون بتأمين دفعات رومانيا كما أمرتهم والاستعداد للحرب القادمة، تبًا للحروب! فهي تأخذ كل صغير وكهل، كل من يستطيع حمل السلاح يدخل في قوة الجيش للدفاع عن أرضه وعرضه وماله، وتُبقي النساء في المنازل يدعون الرب للخلاص والنجاة، بعد أن تُنفَق ميزانية الدولة على الحروب.

ولماذا الحرب من الأساس؟! «إِنَّكَ مَيِّتٌ وإِنَّهُم مَّيِّتُون»، ولكنه العند والكبرياء! فعلى مرِّ التاريخ قامت حضارات ثم دُفنِت تحت التراب، كل دولة تفتِك بالأخرى لطمع الملك، وفي النهاية يُدفَن الملك بعدما كان يُشاهِد جنوده وهم يسفكون الدماء ويقتلون أمامه!

وصلتُ إلى قصر السلطان في إسلام بول (إسطنبول)، ثم جلستُ مع السلطان وأنا أحاول منع حرب:

- كيف حال سلطان المسلمين، إني أرى جنودكَ يسيطرون على الأندلس وعلى جزر اليونان، إلى أين يا سلطان وجهتك؟

عدل جسده بعد أن كان مرتخيًا فاردًا ذراعيه:

- إلى روما وحلفائها.

ثم ابتلعتُ ريقي وأردفت:

- ولكن في الأساس، القسطنطينية هي من رحم روما، وقُسِّمَت إلى شرقية وغربية، ودخل المسلمون فيها واستوطنوها، وانتهت الحروب الصليبية الأولى والثانية، إذًا، مالي ومال الروم بالمسلمين؟! أنا أريد أن أحيا في سلام!

فوقف أمام خارطة للعالم معلقة على جدار القصر:

- أنا أحلُم بغزو العالم.

فوقفت خلفه:

- لا أحد يستطيع أن يغزو العالم!

ثم أكملت قائلًا:

- يومًا ما سوف يمتلك العرب كنوز الأرض، ولكن سوف يعملون على خدمة الرومان.

فنظرَ إليَّ نظرةً كادت تخترقني مثل الرمح وهو يقول:

- ماذا تقول يا عبدَ الصليب؟!

قلت له:

- أنتَ تريد الحرب ولا تريد غيرها، حسنًا لكَ ما تريد، لن أُقاتِلك، ولكن روما في طريقها إليكَ من الجنوب ومن مِصر ومن الأندلس.

ثم ذهبت عنه بتلك الخدعة التي سوف يكتشفها، ولكن بعد وقتٍ طويل، لكي أتفرَّغ للرومان الذين يتوعدون لرومانيا، والتي تمَّ ضمها قديمًا لنهبِ خيراتها وأخذ ذهبها، وبعد نفاد الذهب تركوها، إذًا عليَّ حماية تلك الأرض الطيبة.

***

بدأت جيوشي في القتال مع روما، فهُم على بابها الغربي الآن، وأنا في الطريق إليهم بعد أن انسحب السلطان من جزر اليونان خوفًا من التهديدات

الرومانية التي بخَخت سمي في أذنيه لكسب بعض الوقت، ليصبح في القسطنطينية (إسلام بول) مُحاصِرًا نفسه بنفسه.

***

في طريق عودتي إلى عربتي الحربية، جلس بجانبي (لوسيفر) وقلت له:

- لم أرَ قط يومًا سعيدًا معك، اشتقت لأناسٍ يحبونني وللحياة البسيطة، فإن حياة الملوك تلك لا تناسبني، قتل في قتل، وسفك دماء وخيانة، ومؤامرات وجنود تقتُل في سبيلي، وملوك يعشقون الدماء!

نظر إليَّ وهو مبتسم:

- عليكَ بحماية رومانيا مولاي، فالرومان على الأبواب الآن.

أعلم بأن الحديث لن يُجدي مع ذلك الشيطان اللعين، كم أشتاقُ إلى (جنة) وإلى (شيماء)!

واصلَت قواتي التقدم، ونحن الآن في طريقنا إلى رومانيا.

***

وصلت إلى قصري وأعلم أن الحرب قد بدأت، أردت أن أطمئن على زوجتي، فدخلت إلى غرفتنا الكبيرة، لأجدها في أحضان أحد قاداتي، ولم تشعر بوجودي.

تدفق الدم في شراييني، فأخرجتُ سلاحي وطعنتهما طعنةً واحدةً اخترقتهما هما الاثنان في الفراش، حتى أصبح لون الفراش أحمر!

***

أقف أمام قصري وحولي جنودي نستعد للَّحاق بجيوشنا في الغرب لمواجهة روما، والتي هي بالفعل أقوى من جيوشي، وقلت:

- اليوم أرسلَ لي إمبراطور روما جنودًا ليقتلوا زوجتي، إذا انتصروا علينا فسوف يغتصبون زوجاتكم ويقتلوهن أو يتركوهن ولكن كإماء لهم، علينا بالحرب المقدسة، حرب الأرض والعِرض، حتى وإن تمَّ طعنُنا من الخلف، علينا بالتقدم إلى الأمام، إلى الأمام.

صاح الجنود جميعًا:

- إلى الأمام، إلى الأمام...

وإذا بجيشٍ كبيرٍ يأتي من خلفنا، إنهم المجر، أتى الملك الكبير بصحبة أبنائه وجيشه الكبير والجيش الروسي، ذلك القائد الروسي الذي تحدث معي وقال:

- إن أمن وسلامة رومانيا مِن أمن وسلامة بلادنا، فإن قام الرومان بغزو بلادكم فسوف يُكمِلون زحفهم إلى الشمال وإلى الجنوب.

تلك هي اللحظات القليلة التي أشعر فيها بالسعادة، ذهبت قواتنا لمُلاقاة الجيش الروماني.

***

وسط أرض المعركة، وأثناء حرب دامية دامَت ليومين، رأيت جنودي تتساقط أمامي واحدًا تلو الآخر، وكالعادة لم أرَ (لوسيفر).

اشتدت المعركة وأصبحت سهام الجنود تحجُب رؤية السماء، واختلط الحابل بالنابل والكل غارق في بحار من الدماء، رميتُ بنظري لأرى إمبراطور روما يقف بعيدًا، فخطرت على بالي فكرة بأن أقتُلَه وأُنهي هذه المأساة.

ركبت أحد الخيول وانطلقتُ مُسرِعًا، كان الخيل يطير بي وليس يجري، حتى وصلتُ وانتفضَ من معقدِه والتفَّ جنوده حوله، فانهلتُ عليهم بالمبارزة وأسقطتُ منهم الكثير.

تقدمت نحوه، ليأتي سهم ويخترق صدري لأسقط أرضًا، ثم نهضت وأنا أتكئ على سيفي، وإذا بالسهام تنطلق نحوي كالمطر الغزير، فسقطت أرضًا وأنا أنظُر إلى عدالة السماء!

تقدم الإمبراطور ونظر إليَّ:

- لن أقتُلك، سوف أتركَكَ تأكل منك الطيور والنسور الجارحة، النصر لنا، سوف أذهب إلى قصرك وأُضاجِع زوجتك.

فابتسمت في تعجُّب!

كنت وحدي ملقى على الأرض وسط آلاف الجثث، مشى فوقهم (لوسيفر)، ثم وقف أمامي وقال:

- انتهت مهمتك الآن، فلقد خانك وباعك كل حلفائك وانضموا إلى إمبراطور الرومان، سوف أنقلك إلى زمان آخر في بقعة ما من بقاع الأرض؛ لتُحقِّق ما أطمع به، فالآن أنتَ وحَّدت بين الغرب والشمال ضد العرب المسلمين، وسوف تبدأ المعركة الكبرى!

ثم تحول (لوسيفر) إلى غربان أسود يطير من حولي حتى غطى جسدي وقام بنهش لحمي.

غابت عني الدنيا وأغمضت عينيَّ إلى الأبد.

***

إن لذة الشيطان في أن يُثبِت للإله أنه خَلَق كائنًا ناكرًا للجميل وسهل المنال، والكفر بالله ونِعَمه من أكثر الأشياء التي تُسعِد الشيطان؛ حيث يقوم بإغواء الضعفاء وإيهامهم بالجنة، جنة الأرض وملذات الدنيا، حتى يُغرِقهم في الشهوات، ثم يتلذذ بالنظر إليهم وهم مُدمَّرون نفسيًّا ومعنويًّا وجسديًّا أثرَ كفرهم، ويتركهم في جحيم الحياة منتظرين جحيم الآخرة، جحيم جهنم!

تمت

www.bakawelkotob.com

إصدار

حكاوي الكتب

www.hakawelkotob.com

رابط الجروب

www.facebook.com/groups/1604415572971777/